نصوص مختارة لأحمد فارس الشدياق

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

خَلْق الإنكليز وأخلاقُهم

والحقّ يُقال: إنّ نساء الإنكليز على غاية ما يكون من التقشّف والقناعة؛ فإنّ أقلّ شيءٍ من الملبوس يرضيهنَّ، ومن المطاعم يكفيهنّ. ولا يستعملن الدُّخان ولا النَّشوق كبعض نساء الفِرَنْسيس، ولا هنَّ مثلهنّ أيضًا في كونهنَّ ينكرن مزيّة الرجال على النساء. فمهما تكنِ المرأة شريفة من الإنكليز تعترف بأنّ الله تعالى خالق الرجال قوّامين عليهنّ. وإذا أهديْتَ إحداهنّ منديلًا أو حذاء أو نحو ذلك، استعظمَتِ الهديّة وبالغت في وصف محاسنها وكرّرَتْ الثناء عليكَ، حتّى تتوهّم أنّك صرت رابعًا لحاتم طيّ وهرِم بن سنان وكعب بن مامة[1].

ويعجبني من الإنكليز خِلال، منها: أنّه ليس عندهم فضول وتكليف على الدَّخيل فيهم، بل ولا على من هو منهم؛ فلا يزورونه في غير وقت الزيارة، ولا يستعيرون منه ، ولا يتعرَّضون لما يأتيه. فلو رأوه – مثلًا– مضطجعًا على قارعة الطريق لم يسألوه لأيّ سببٍ تفعل ذلك، بل ربّما حسِبوا أنّ أهل بلاده جميعًا يضطجعون مثله وأنّ في ذلك مصلحة لهم. وإذا زارك أحدهم ورأى عندك – مثلًا– امرأة أو نساءً لم يهمّه أنْ يسألك عن سبب زيارتهنّ، ممّا لا بدّ منه في بلدنا. و كذا لو رأوك تماشي امرأة في الطرقات أو تخاصرها؛ فكلّ منهم مشغول بهمّه و مهموم بشغله...

ومن ذلك: الجِدّ في المساعي، وعدم الشماتة وكراهية العبث الموجب للتنافر والعداوة أو لنكاية الخصم... وعدم التهافت على الحسد. فإذا رأوا عندك – مثلًا– متاعًا نفيسًا لم يكن عندهم مثله لم ينفَسوا[2] عليك في إحرازه،ولا يقولون: يا ليت كان لنا مثلُه! وخَصلة النَّفاسة والحسد قلّما يخلو منها في بلادنا جسد !...

ومن هذا القبيل : عدم بَخْس الناس حقّهم. فإذا نبغ أحدٌ فيهم في فنّ وصنعةٍ لم يجد من يتصدّى لتجهيله وتخطئته، حتّى يوقفه عن تقدّمه ويطفيء جذوة قريحته ... لا بل يجد من ينشّطه وييسّر له أسباب العلم. أمّا في بلدنا فإذا نبغ أحد في شيء بادَرَه حسّاده بقولهم : هو حمار، هو متطفّل!

ومن ذلك أنّهم لا يتشبّثون بأعقاب الأقاويل، ولا يأتون النميمة والغِيبة إلّا قليلًا. فإذا سكن ما بينهم غريب وسمعوا عنه ما يكرهونه منه فلا ينقلون إليه ما سمعوا عنه، بل لا يهمّهم ما قيل فيه، وإنّما يعاملونه بما يظهر لهم من حُسْن سيرته ، خلافًا للفِرَنْسيس: فإنّهم مثلُنا في التعلّق بقال وقيل، وفي الإستفحاص عن أحوال الجيران، بل أهل البلد !

---

١. ثلاثة من أشهر كرماء العرب في الجاهليّة .

٢. نفَسَ عليه، ينفَس نفاسة: حسده.

ومن ذلك كلامهم بصوتٍ منخفض، وهي صفة تكاد أن تكون من خصوصيّات نسائهم. وفي بعض البلاد قد تسمع للنساء زعيقًا[1] وزعيقًا كأصوات الجِنّ.

ومن ذلك: حُسْن الترتيب والتدبير في الأشغال والمصالح، والتوقيت للعمل. فلكلّ شيء عندهم وقت، ولكلّ وقتٍ شغل. فإذا اتّفق أن زارهم أحد في ساعة الشغل لم يتحاشوا أن يقولوا له – مثلًا– قد أنسنا بك، ولكن علينا قضاء ما لا بدّ من المصالح، فلا تؤاخذْنا، وزُرْنا في يوم كذا؛ فينصرف عنهم عاذرًا لا عازلًا، لأنّه هو أيضًا يعاملهم بمثل ذلك. أمّا عندنا فربّما تعطّلت مصالح الإنسان بكثرة زوّاره حتّى يُضطرّ أخيرًا إلى أن يحمل وسادته ويقول: شفى الله مريضكم!

أحمد فارس الشدياق،

"خَلْق الإنكليز وأخلاقهم" من كتاب **كشف المخبّا عن فنون أوروبّا**، نقلًا عن: الأشتر، عبد الكريم ، "أحمد فارس الشدياق" في **نصوص مختارة من الأدب العربيّ الحديث، النثر، ١، أعلام الروّاد**، دمشق، المكتبة الحديثة، ١٩٦٦، ص ١٩٤، ٢٠٢-٢٠٤.

###

في الثلج

لا غرو أن يجد بعض القارئين كلامي، في هذا الفصل، باردًا لأنّي كتبته في يوم عبوس قمطرير. ذي زمهرير. والثلج إذ ذاك ساقط على السطوح. وقد سدّ الطرق ودخل في البيوت والصروح. وكاد يطفي النار ويذهب بالاصطبار. ويمني بالقَمر والقِمار. غير أنّه لا ينكِر أحد أنّ شارب الثلج أو آكله أو اللاعب به يحسّ منه بحرارة، وكذلك قارىء كلامي، فإنه وإنْ وجده باردًا فلا بدّ وأن يحتمي عليّ من هذه البرودة فيكون قد حصل الغرض وهو تسخين دماغه. ولا سيّما إذ كان قد بقيَتْ فيه بقية غيظ وحدّة من الفصل المتقدِّم. ولكنّي لم أقصد في ما حكيته إلّا الصدق. (...) إلّا أنّ الثلج يخالف كلامي من جهة أنّه يسقط على الأسود فيبيّضه، وكلامي قد سقط على القرطاس فسوّده. وكلاهما في ظنّي يروق العين، وكلاهما يجتمعان في هذه الجهة. وهي أنّ الثلج لا تطلع عليه الشمس أيّامًا إلّا ويذوب. وكذا كلامي فإنّه لا يكاد يبقى منه شيء في رأس القارىء بعد تقمّره أو عند ظهور بوح عليه. وهناك جهة أخرى تضمّهما. وهو أنّ الثلج، بعد سقوطه، ينشأ عنه الصحو وانجلاء الجوّ. وكذلك كلامي فإنّه، بعد تساقطه من رأسي، ينشأ عنه انجلاء جوّ فكري وصحو بالي، واستعداده إلى ما يروق ويروع. فعلى كلّ حال تجد المشابهة هنا في موقعها، وعذري في محلّه. وبعد، فإنّي أرى الأغنياء المثرين يتّخذون في ديارهم الفسيحة مساكن للصيف وأخرى للشتاء، وَكِنًّا[2] للمبيت، وآخر للاستحمام. ومن لم يكن له من غيرهم إلّا بيت واحد فغير جدير بأن يُزار فيه إلّا حين يكون بيته موافقًا لوقت الزيارة. أو يكون وقت الزيارة موافقًا لبيته. فبناء على ذلك ينبغي للعلماء، إقتداءً بأكابرهم الأغنياء، أن يتّخذوا لهم في رؤوسهم الفيحاء مواطن متعدّدة مختلفة لما يأتي عليهم من الكلام البارد والفاتر

١. زَعَفَ في الحديث: زاد عليه أوكذب فيه، ولعلّها: "عزيفًا"، يُقال: عَزَفت الجِنّ– تعزِف عَزْفًا وعَزيفًا: صوّتَت.

٢. الكِنُّ: البيت.

والحميم. ففي وقت ثوران الدم، وهيَجان الطبع، يقرأون البارد تقليلًا ممّا حرّكهم من بواعث الحرارة. وفي وقت السكون يتلون الحميم، أو بالعكس على مذهب من يداوي الشيء بجنسه لا بضدّه.

لا يُقال إنّ القارئ يضيّع وقته في تمييز البارد والحميم من هذه الفصول. إذ يستوعب مضمونها إلّا إذا أتى على آخرها. بخلاف سائر الكتب فإنّه لا يتعمّد فيها الكلام البارد فهي على منهاج واحد. فإنّي أقول إنّ كلّ فصل من تلك الفصول له عنوان يدلّ عليه دلالة قطعيّة كدلالة الدخان على النار. فمن درى العنوان فقد درى الفصل كلّه.(...) بل الأَوْلى أن ينوي القارئ، عند افتتاحه هذا الكتاب، أن يتصفّحه كلّه، من أوّله إلى آخره، حتّى حواشيه وعدد صفحاته.ويعتقد أنّ لكلّ مؤلِّف أسلوبًا. وأنّه لا يمكن أن يُعجِبَ الناس كلّهم. إذ الأهواء متفاوتة.والآراء مختلفة. ومِنَ الأسرار التي بقيت مكتومة عنّي أنّك تجد بعض المؤلَّفين فاتر الحركة، غير ذي نشاط ولامرح. قليل الارتياح إلى ما يبعث على التهاوش والتناوش. متقاعس الهمّة عن السّبْح والحركة. ناظر إلى الحوادث كلّها نظر المتوقِّع لها. وهو مع ذلك إذا أخذ القلم أَنبضَ كلّ عرق في القارىء، وحرّك كلّ ساكن. ومنهم مَن تراه نَزِقاً حَرِكًا ذا تترّع وتسرّع وحفد وصَمَيان وإقبال وإدبار وسعي وتهافت. ومعالجة ومبادرة ومزاحمة ومزاهمة ومسابقة ومحاشرة، ثمّ هو إنْ قال شيئًا سقط من رأسه على ذهن القارىء سقوط الثلج حتّى يكاد أن يخمد منه ذكاه. فلمّا تأمّلْتُ في ذلك وتحقّقْتُه، ارتَبْتُ في كون سَقْطِ الثلج ناشئًا عن فرط برودة متكوِّنة في الهواء، وقلت بل لعلّ سببه فرط حرارة حرَّت في صدر الجوّ على سكّان هذه الأرض.

ومع كونه، أي الثلج، يُرى ساقطًا عل كلّ موضع في المدينة دون أيّ تمييز دارٍ عن دار، فإنّ لفظه في الحقيقة لا يصيب إلاّ رؤوس بعض الناس. وكان الأَوْلى أن يَطّرِدَ حكمه فيعمّ، لا مثل أحكام اللفظ الأرضيّ فإنّها تجري على قوم دون قوم. والفرق بين اللفظين هو أنّ الثلج، لمّا كان سقوطه أو لفظه من عِلْوٍ إلى سِفْلٍ، كان المظنون به أنّه يتصوّب على جميع الرؤوس بشدّة. فشمل الكبير منها والصغير، والمسفَّط[1] منها والمسمرَط[2]. فأمّا الأحكام والقوانين الأرضيّة فمن حيث كان لفظها من سِفْلٍ إلى عِلْوٍ، أي من رؤوس ناس مَسودين إلى رؤوس ناس سائدين، لم يكن من المحتمل أن يكون تَبَعّثُها قويًّا حتّى يبلغ ذوي الرفعة والعلاء الذين يمرّ السحاب من تحت قذُلهم. ثمّ إنّ الثلج، مع ما يتبعه في الواقع من الضنك والمشقّة لمن أَلِفَه، فقد يروق لعين من لم يكن رآه. فقد بلغنا أنّ بعض الصعاليك كان مرّة ضيفًا عند أناس لم يكرموه، ولم يحتفلوا به، إذ كان دونهم في المعارف والنباهة. وكان بلدهم لا يسقط فيه الثلج البتّة. فلمّا فُصِل من عندهم إلى بلاد أخرى رأى فيها الرزق وعاين بها الثلج، كبّر لرؤيته وهلّل وأُعجب به غاية الإعجاب. حتّى زعم أنّه منّة من الله خصّ بها ذلك الصقع تَمْزِيَةً له على غيره. كما أنّه تعالى حرم منها بلد مضيفه الأوّل. وكذلك كلامي ههنا. فإنّه، مع ما فيه من الاستطراد والحشر والألفاظ المضغوطة بين المعاني، ومن المغازي المعقودة بالتلميح والتلويح، والتحويل والتمليح، فقد يروق لخاطرِ مَن لم يكن قد أَلِف هذا التخليط، بل ربّما يحمله الإعجاب به على تحدّيه ومحاكاته. ولكن هيهات فإنّ الباب قد أُغلق في وجوه المتَحَدّين. على أنّي لست أزعم أنّي أوّل كاتب في الدنيا نهج هذه الطريقة وأسعطها المتناعسين. إلاّ أنّي رأيت جميع المؤلّفين في سَهوة كتبي قد قيّدوا نفسهم بسلسلة نَفَس من التأليف واحدة. لكنّني لا أعلم الآن هل غيّروا أسلوبهم أو لا. إذ قد مضى عليّ بعد فراقهم أكثر من

١. مسفَّط الرأس: كبيره، تشبيهًا له بالسَفَط، والسَفَط وعاء كالقفّة يوُضَع فيه الطيب.

٢. يُقال تمرّط الشعر أي تساقط، والسهم خلا من الريش،والرأس المسمرَط الذي تساقط شعره.

خمس سنين. فكأنّ العارف بحلقة واحدة من تللك السلسلة قد عرف سائر الحَلَق، حتّى إنّ كلّ واحد منهم يصدق عليه أن يُسمَّى حلقيًّا، بناءً على أنّه مشى وراء القوم وحذا حذوهم. فإذ قد تقرّر ذلك فاعْلم أنّي قد خرجت من السلسلة، فما أنا بحلقيٍّ ولا بِسُتَيْهِيٍّ[١]، ولا أكون إمام القوم فإنّ الثانية أنحس من الأولى. وإنّما أنا مستقبِل لما استحسنت. آخذ بناصية ما استظرفت. رافض مُكْلف العادة.

أحمد فارس الشدياق،

الساق على الساق في ما هو الفارياق أو أيّام وشهور وأعوام في عَجْم العرب والأعجام، قدّم له وعلّق عليه الشيخ نسيب وهَيْبه الخازن، الكتاب الأوّل، ١٧، في الثلج، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٧٧، ص١٦٤-١٦٨.

###

انتصار الشدياق للمرأة

مِن الناس مَن يتزوّج المرأة لجمالها لا لكمالها، ولكونها لا لِبَوْنِها[٢]، ولِغِناها ولَحْنِها لا لحِجاها وَلَحَنِها[٣]، (...)، وَلِدلّها وشكلها لا لفضلها ونُبلها ، ولتبرّجها وتدعّبها لا لتحرّجها وتهذّبها، ولخفّتها لا لعفّتها ، وَلِتَزَيُّنِها لا لتديُّنها ، وَلِكَحَلها لا لِمَهَلها[٤]. و ذلك دأب الذوّاق المِطلاق الذي لا يبقى على عهد وميثاق ، ومَن همّه أن يتلذّذ بحواسّه الظاهرة دون الباطنة ، ويَغْفَل عن العواقب الكامنة. فإنّ الرجل اللّبيب، الذي يُصيب[٥] الزوجة حتّى يَصيب[٦] ويطيب، هو من نظر في محاسنها النفسيّة دون الجسميّة؛ فإنّ حُسْن البشرة يزول ، ونضرة الوجه تَحُول؛ إذ لا يخفى أنّ المرأة عُرْضة لكوارث متناوبة ، وحوادث متعاقبة ، من شأنها أن تسرع بها إلى الهرَم ، وتعرّضها للسَّقم، وتورثها العلل عِلَّة بعد عِلَّة، فضلًا عن كونها ضعيفة البنية بالجِبِلَّة . فإذا كان كذلك عفا أثر الحبّ الذي كان مبنيًّا على هذه المحاسن الظاهرة ، ومال القلب عنها إلى أخرى باهرة.

أمّا سِنّ الزوجين وقت الزواج ، فليس فيه قول فاصل مبنيٌّ على الاحتجاج. ففي بلاد أوروبّا لا تتزوّج المرأة رجلًا إلّا إذا كان تِرْبًا[٧] لها، وإلّا فزيادة بضع سنين؛ وما زاد على ذلك فهو من الشّذوذ الذي يَشين[٨]. وذلك كأن يتزوّج شيخ فانٍ- وهو شريف النّسب- بفتاة لا أصل لها ولا حَسَب؛ فهي إنّما تتزوّجه لكي ترث منه اللقب، لا لكي ترأمه رأم من أحبّ. وفي بلاد الشرق قد يتزوّج الرجل من لم تبلغ

١. السُّتَيْهِيّ بصيغة التّصغير (والصَّواب السَّيْتَهِيّ كحَيْدَرِيّ) مَن يمشي وراء القوم أبدًا.

٢. البَوْن: الفضل والمزيّة.

٣. اللّحَن: الفطنة.

٤. المَهَل:التقدّمُ في الخير.

٥. يُصيب: ينال ويدرك.

٦. يَصيب: يأتي الصَّواب.

٧. التِّرْب: المساوي في السنّ، جمع أتراب.

٨. يَشين: يُعيب.

نصف عمره، ولا يرى في هذا الفرق سببًا يحملها على تركه وهجره، لأنّه يعتقد أنّ الذكر خير من الأنثى، وأفضل منها قِنْسًا[١] وأكرم جِنْثًا[٢]!

وعلى هذا: فله أن يُغيِرها[٣] بضرائر شتّى، [...] ولا يَمْحضها الوَداد [...]، ولا يُعْنى بشأنها إذا امتُحِنَتْ، ولا يَرْثي لها إذا امتُهِنَتْ [...]. وأنّ له أن يسهر الليالي مع أحبابه وهي مقصورة على حجرتها، ولا ترى إلّا وجه ضرّتها ! وأن يغيب عنها دهرًا، ويُغادرها مقيّدة باسمه كرهًا وجبرًا، ويجعل عليها مَن تَرْقبها، فتقصرها وتحجبها. فلا تخرج إلى الشارع ، ولا تبرز إلى المصانع، ولا تستنشق الهواء إلّا من خروق الشبّاك، ولا تلمح بشرًا إلاّ على وَجَل من الهلاك، وإيجاس من الإنتهاك! وماذلك إلاّ لأن الذّكر خير من الأنثى، وأنّه أفضل منها قِنْسًا وأكرم جِنْثًا!

وأنّ له أن يَصُرَّ على ما اكتسبه من المال، ويخفيه عنها كخفائها عن الرّجال، فلا يَنِضّ[٤] لها منه إلّا ما لا مَحيد عنه. وهو قُوت مَن لا يموت، ولباس مَن لم يُودَع بعد في الأرماس، وهو على نفسه أكرم الناس. فإن قالت له: إنّ فلانة ذات حَلْيّ[٥] وإنّي ذات عَطَل[٦]، وما لي غير هذا الثوب من بدل، قام على منبر الوعظ والإنذار، وقال لها: إنّ المرأة الصالحة تكتفي بالإدام والأطمار! وقد طالما عهدتك من الصالحات، فكيف صِرْتِ من المسرفات الطالحات؟ قال النبيّ. قال زيد. قال عمرو. أنبأنا. حدّثنا. فيُسكتها ويُخجلها، وعلى كيده يحملها؛ إذ هي تعلم أنّ الشّرع الشريف لم يحرّم على النساء الزّينة؛ وإنّما هو سفاهة من الرّجل وسوء كِيْنَة[٧]. وأقبح من ذلك إذا كان الرّجل يحرّمها على عِرْسه[٨]، ويستحلّها لنفسه. وما ذلك إلاّ لأنّ الذكر خير من الأنثى، وأفضل منها قِنْسا وأكرم جِنْثًا!

ثم إذا قالت له، إنّ جارتي تخرج إلى المنازِه، وبين حالتي وحالتها مَشابه، فدعني أخرج معها، وأرتع مرتعها، وأَجري مجراها، وأسري مَسْراها، قال لها: إنّ شأن الحرّة أنْ تكون مُلازمة للزّوايا، مُداوِمة على الخبايا، لا تتفرّج ولا تتبرّج، ولا تتلوّج[٩] ولا تتلعّج[١٠]، ولاتفكّر في منتديات النساء، ولا تصبو إلى الكساء. وكلّ أنثى خرجت من دارها، فقد باءت بأوزارها، وترجمت عن شَنارها[١١]. ثم اندفع يقول: قال الله. قال الرسول. وما ذلك إلاّ لأنّ الذَكَر خير من الانثى، وأفضل منها قِنْسًا وأكرم جِنْثًا!

وهكذا يعيش الرّجل والمرأة كالضِّدَّين المتعاندين، والقِرْنَين المتناكدين. فيبيت كلّ منهما والاحتيال شاغله، والإغتيال شاعله، إلى أن يصلح بينهما الطّلاق، ونِعْمَ المصلح الفراق!

---

١. قِنْسًا: أصلًا، والقِنْس هو الأصل.
٢. جِنْثًا: أصلًا، والجِنْث هو الأصل.
٣. يُغيِرها: يُثير غَيْرَتها.
٤. يَنِضّ الماء: يسيل قليلًا قليلًا.
٥. الحَلْيّ: ما تتزيّن به المرأة.
٦. العَطَ ل: عَطِلَت المرأة: خَلَت معاطلها (مواضع الحَلْيّ) مِن الحَلْيّ.
٧. الكِيْنَة: الحال.
٨. عِرْس الرجل: إمرأته، وهو:عِرسها، وجمعه أعراس، للذكر والأنثى.
٩. تلوَّج: استدار وتعوَّجَ.
١٠. تَلَعَّجَت المرأة: توهَّجَت شهوة وحرارة.
١١. الشَنار: أقبح العيب

ومنهم من يتزوّج المرأة حتّى تكون قرينة له في أحواله وآماله، ومعينة له على أعماله، وشريكة له في الضرّاء والسرّاء، والإعسار والإثراء، فيخلص كلّ منهما لصاحبه وُدَّه، ويحفظ عهده، ويحمي عِرْضه، ويوفّر حظّه، ويعظّم قدره، ويكتم سرّه. فلا يكون لأحدهما غنى عن الآخر، كأنّهما جسم واحد إنْ غاب أو حضر. ومن كان مع زوجه على هذه الحالة، فهو أسعد الناس لا محالة؛ إذ لا يخفى أنّ غبطة الرّجل في أكثر أحواله، متوقّفة على الإلتئام والتوافق مع أهله وعياله. وعند ذلك يصير القليل كثيرًا، والعسير يسيرًا، والشدّة رخاء، والكدر صفاء.

ولا يَخفى ما للزّوجة من الفضل في تربية الأولاد وتدبير المنزل، ممّا به قرّة عين المتأهّل، ولا سيّما حين يضطرّه الاكتساب إلى الغياب.

وعندي على أحوال المتزوّجين كلام طويل؛ لكنّي أكتفي هنا بهذا القدر القليل.

وفي الجملة: فلا ينبغي في الزّواج التهافت على الملاح، فإنّه يُذيق صاحبه من قُدودهنّ وخز الرّماح، ومن عيونهنّ حزّ الصّفاح؛ وما وراء ذلك إلّا الافتضاح. وإنّما المطلوب فيه الوئام والوفاق، ولا يُفيز بذلك إلّا حُسْن الأخلاق.

أحمد فارس الشدياق،

مقالة الشدياق الصحفيّة (انتصار الشدياق للمرأة)، كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ١/٢٢٠-٢٢٤، نقلًا عن عبد الكريم الأشتر، "أحمد فارس الشدياق" في **نصوص مختارة من الأدب العربيّ الحديث، النثر ١، أعلام الروّاد**، دمشق، المكتبة الحديثة، ١٩٦٦، ص ٢٧٤-٢٨٣.

###